

مسألة: بعض: آيات صفة الرضا والمحبة والغضب والسخط والكراهية والمكر

قوله: (وقوله تعالى: { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [المائدة:119] وقوله تعالى: { يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ } [المائدة:54] وقوله تعالى: { وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } [الفتح:6] وقوله تعالى: { اتَّبِعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ } [محمد:28] وقوله تعالى: { كَرِهَ اللَّهُ ابْتِغَاءَهُمْ } [التوبة:46] . شرح: ذكرنا أن صفات الله تعالى: صفات ذاتية، وصفات فعلية، وهذه الآيات اشتملت على الصفات الفعلية، وهي التي يتصف بها إذا شاء، ولا تكون ملازمة للذات دائماً بل يتصف بها إذا شاء، ويتصف بصددها أو بغيرها؛ لأنهما ضدان، فعندنا في هذه الآيات الرضا والغضب؛ وفي آيات كثيرة. مثال الرضا { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } في عدة سور، وكذا قوله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ } (الفتح:18) ودائماً عندما نذكر الصحابة نقول: رضي الله عنهم، عملاً بقوله تعالى: { وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } (التوبة:100) قَرِصًا اللَّهُ - تعالى - صفة من صفاته، ولكنها صفة فعل، يرضى إذا شاء ويغضب إذا شَاء. وقد ذكر الله الغضب في عدة آيات كقوله تعالى: { وَالْحَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا } (النور:9) وكقوله تعالى: { وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ } (النساء:93) وكقوله تعالى: { وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } (الفتح:6) وفي حديث الشفاعة { إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله } فأثبت أن هذا غضب متجدد، وأنه لا يكون بعد هذا اليوم مثله، ودل على أن الغضب صفة فعل يغضب على من يشاء، ويرضى عن من يشاء. فعلى هذا، فالصفتان، لا يمكن أن يرضى ويغضب في حالة واحدة على شخص واحد، ولا يقال: هذا رضي الله عنه وغضب عليه في حالة واحدة، بل رضي عن هذا وغضب على هذا. فالرضا والغضب صفتان فعل، وهذه الصفات التي ذكرت في هذه الآيات كلها من صفات الفعل كقوله تعالى: { كَرِهَ اللَّهُ ابْتِغَاءَهُمْ } (التوبة:46) { ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ ابْتِغَاءُ مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ } (محمد:28) حيث أثبت لنفسه صفة السخط وصفة الكراهية، وكقولو تعالى: { بَاءً بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ } (آل عمران:162) . والآيات التي فيها صفات الفعل كثيرة مثل قوله تعالى: { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } (النساء:142) فيها صفة المخادعة، قال تعالى: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } (البقرة:15) فيها صفة الاستهزاء، قال تعالى: { قَلَمًا أَتَقْوَى } (الزخرف:55) (فيها صفة الأسف، قال تعالى: { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } (آل عمران:54) { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا } (الطارق:15-16) صفتا المكر والكيد، وأشباهها، كل هذه صفات فعل نثبتها لله كما يشاء، ونقول: إنه يسخط على من يشاء، ويرضى عن من يشاء. ومثلها أيضاً صفات المحبة، قال تعالى: { يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ } (المائدة:54) وصفات الرحمة في آيات كثيرة، ومنها اشتق اسم الرحمن، ووصف نفسه بالرحمة، قال تعالى: { رَبِّتَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَرَحْمَةٌ وَعِلْمًا } (غافر:7) { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } (الأعراف:156) { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } (الأعراف:56) . فطريقة أهل السنة في هذه الصفات إثباتها ونفي النقص عنها؛ وذلك لأن الله أخبر بها، والله لا يخبر إلا بما هو حق، ولو كانت قد تستنكر أو تدم في حق الآدمي، كما في الصحيح عن أبي هريرة قال: { إن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: لا تغضب فردد مراراً قال: لا تغضب } رواه البخاري في الأدب برقم (6116). نهاه عن الغضب، والله تعالى يغضب، ولكنه يغضب على من يستحق الغضب، وكذلك مثله السخط، والكراهية مذمومة، ولكن إذا كانت على من يستحق ذلك فهي صفة حق، وهي صفة ثبوتية أثبتنا الله لنفسه. وقد كثرت التأويلات من المبتدعة لهذه الصفات، فيقول بعضهم: كيف يستهزئ الله مع أن الاستهزاء جهل، واستدلوا بقوله - تعالى - عن موسى - { قَالُوا أَتَجِدْنَا هُرُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } (البقرة:67) فإذا كان موسى يقول: إن الاستهزاء، أو الهزاء، جهل، فكيف يقول الله تعالى: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } (البقرة:15) . وكذلك المكر والكيد، والمخادعة، والمقت، والأسف، وما أشبهها، هذه مذمومة للإنسان إذا صدرت منه؛ فإن الله تعالى نهانا بقوله تعالى: { لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا } (الحديد:23) فكيف يتصف الله تعالى بها، ولما قال عنهم: { يَكِيدُونَ كَيْدًا } (الطارق:15) قال: { وَأَكِيدُ كَيْدًا } (الطارق:16) ولما قال: { وَمَكَرُوا مَكْرًا } (النمل:50) قال: { وَمَكَرْتَا مَكْرًا } (النمل:50) . فالجواب: إن هذا من باب المقابلة لفعالهم بمثله، ولكن لا يكون فعل الله مساوياً لفعل العبد، بل صفات الله المذكورة صفات أثبتنا لنفسه، وهي لا تكون إلا على من هو أهل لها، ولها آثارها، فإذا قلت: ما هو أثر الغضب؟ الجواب: أنه إذا غضب فإنه يعذب من يغضب عليه، وقد ورد أثر الرضا في أن الله إذا رضي فإنه ينعم على من رضي عنه وبشبهه - في حديث قدسي وإن كان ضعيفاً؛ لكنه يكثر الاستشهاد به للاستئناس ولفظه: { إذا أطعْتُ رَضِيْتُ ، وإذا رَضِيْتُ بَارَكْتُ ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا غَضِبْتُ غَضِبْتُ ، وإذا غَضِبْتُ لَعَنْتُ ، ولعنتي تبلغ الساع من الولد } ذكره ابن الجوزي في "ذم الهوى" باب / في التحذير من المعاصي وقيح أثرها ص 182. على تقدير أن هذا يُستشهد به، فيه إثبات أثر الغضب، وأثر الرضى، ولو لم يأت في هذا الحديث، ولكن ذلك من مقتضياته، فأنت تقول للإنسان الذي تنصحه: لا تفعل ما يغضب الله، هذا الفعل يغضب الله، فهو يعرف أن الله إذا غضب يعاقب، اتبع ما يرضى الله عليك أو بما يرضى به عنك ربك، فهو يعرف أنه إذا رضي الله عنه أتاه، فهو يحرص على الفعل الذي به يكون ربه راضياً عنه، ويتعد عن الفعل الذي يكون به الرب عليه غضبان، لأنه يعرف أن في هذا الغضب عذاباً، وفي الرضا ثواباً، إذا فلهما آثار في الدنيا وفي الآخرة. ويقال كذلك أيضاً في الصفات الأخرى؛ كصفة السخط، وصفة الكراهية، وصفة المقت، وصفة الأسف، وصفة الكيد، ويقال: إن الله يمكر بهؤلاء، يعني: يعطيهم ثم يعطيهم، ثم يأخذهم على حين غفلة، فكأنه مكر بهم. ورد في بعض الآثار؛ لما ذكر تمادي بعض الكفار والعصاة، قال: (مُكِرَ بِالْقَوْمِ وَرَبِ الْكَعْبَةِ) ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة" من كلام الحسن البصري رحمه الله، وعزاه لابن أبي حاتم. يعني خُدعوا بما وسع عليهم، وما توسعوا فيه، مما أوقعهم في الذنوب، إلى أن حصل لهم ما حصل من نزول العذاب بهم بغتة وهم لا يشعرون. فنستفيد أن هذه الآيات دالة على صفات فعلية، وأنها غير مكيفة، وأن الذين أنكروها وبالغوا في إنكارها ليس معهم إلا أدلة عقلية أجاب عنها شيخ الإسلام؛ كما في أول (التدمرية) لما قال لهم: أنتم تعترفون بالإرادة، والإرادة هي ميل النفس إلى المراد، وتتكرون الغضب وتقولون: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، فلماذا فرّقت بينهما؟ قالوا: لا نفس الإرادة بأنها ميل القلب إلى المراد، فإن هذه إرادة المخلوق. قال: فكيف تفسرون الغضب بأنه غليان دم القلب لطلب الانتقام، فإن هذا غضب المخلوق، فقد فرقت بين متماثلين؛ أثبت الإرادة ونفيت الغضب، وكلاهما يفسر عندكم بهذا التفسير الذي هو من خصائص المخلوقين، فانقطعت بذلك حجتهن.